قصة
السِّفَّاح
بلحسن تسنيم نور الهدى
كتوباتي
kotobati

السفّاح

قصة

بقلم:

بلحسن تسنيم نور الهدى.

الكتاب: السفّاح.

النوع: قصة.

تأليف: بلحسن تسنيم نور الهدى.

تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي: مكتبة كُتوباتي.

النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي.

www.kotobati.com

kotobati@gmail.com

إصدار 2021.

جميع الحقوق محفوظة.

قطبت السّماء وجهها و تدافعت السحب بعنف لتحجز مكانا فيها قبل أن يفتكّ بها البرق. صرخت الرياح معلنة عن غضب الطبيعة، تلتها قعقعة انبعثت من السّماء، فدفعت الجميع للهروب إلى منازلهم و الإختباء ممّا هو قادم.

_يوم آخر سيء.

تضجّر أسامة من الطقس المتقلّب الذي غزا مدينتهم هذه الأيّام، فما تلبث الشمس تطلّ بأشعتها الذهبية حتى تُسجن.أعقب أكرم على كلامه قائلا:

_أهي حجة أخرى لكي لا تذهب إلى البحيرة؟!

استولى الغضب على أسامة الذي رمى الأخير بنظرات تصرخ غضبا.

_ألا تفهم؟... لا أخاف من تلك البحيرة، و لا أصدّق ما يقوله النّاس عنها.

ثمّ أشاح بنظره عنه و تابع سيره.

_مجرد خرافات تزعم بأنّ هناك سفاحا يعيش بالقرب من البحيرة، و قد اختفى كلّ من ذهب إليها... أظنّهم أضاعوا الطريق و حسب. و بالرغم من ذلك،

لم يكن عليهم أن يلقوا اللوم و أصابع الإتّهام على شيء لا أساس له من الوجود.
هزّ إسحاق كتفيه و قال:
_لقد انقضت آخر أيّام السّنة الدراسية،و لا حجة لك الآن...لا واجبات و لا مهام مدرسية.
اشتدّ بأسامة الغضب و لم يعد قادرا على كتمانه،فإنهال على إسحاق بالإهانات.
_أتقصد بكلامك أنّني أخاف من فكرة زيارة البحيرة؟...أتظنّني مثلك يا إسحاق،أخاف من ظلّي و لا أنام إلّا بعد أن تقرأ لي أمّي قصة نوم جميلة؟!
و تابع ضاحكا:
_أظنّك لم تنس اليوم الذي تنكّرنا فيه أنا و أكرم على هيئة أشباح،و ظهرنا لك على حين بغتة في ساحة الثانوية،نزمجر و نتمتم بكلمات خلتها شعوذات!
انفجر أكرم ضاحكا و هو يصف ردة فعل إسحاق أنذاك...لقد كان مثيرا للشفقة.
إلتقط إسحاق أنفاسه،و دفن غضبه في أعماقه،و قال مشيرا إلى الطريق المؤدية إلى البحيرة:
_أتحدّاك أن تذهب إلى البحيرة الآن.
التفت أسامة إلى المكان الذي أشار إليه صديقه،و ازدرد ريقه قبل أن يقول:

_الآن!...أظنّ أنّ الطقس غير مناسب.
_إذا فلتنس أمر البحيرة،و لا تدّعي الشجاعة و القوّة من الآن فصاعدا.
تلجلج أسامة قليلا، و قال بنبرة يشوبها التحدي:
_سأذهب و أثبت لك أنّني لست خائفا و لا مصدّقا لتلك الخرافات.
قرّر الثلاثة الذهاب إلى البحيرة عبورا بالمقبرة،فلا طريق آخر يؤدّي إليها.تملّكهم الخوف و طاردتهم الهواجس،فأخذوا يتجنبون النظر إلى المقابر و أنفاسهم تتسارع.كصحراء قاحلة تمتد بلا نهاية...مهجورة و موحشة،تملؤها أشجار ضخمة،و نباتات ذات أشواك حادّة...هكذا كانت المقبرة ليلا. خيّل إليهم أنّ الأشجار بعيون حمراء و أغصان مسننة،و أنّ المطر قنابل نووية أو عصارات حارقة تلقيها عليهم الغربان الغاضبة.و بالرغم من هذا ادّعوا الصمود.

وصلوا بعد ثلُثِ ساعة إلى المكان المنشود...البحيرة.فهتف أسامة بصوت عالٍ:
_ها أنذا قد فزت بالتحدي،أتسحبان ما قلتماه عنّي؟
أومأ أكرم و إسحاق إيجابا،بينما تابع أسامة مادحا نفسه:
_أنا قوّي و شجاع،و لا يمكن لأحد أن يبعث في نفسي الخوف.
و أردف بعد أن رأى الجزع الشديد الذي انتاب رفيقيه:
_أنظرا إلى نفسيكما...تبدوان كطفلين ظهر أمامهما غول.
أشار أكرم بسبابته نحو أسامة، و خرجت الكلمات متقطّعة من بين شفتيه و هو يقول:
_إنّه..الس...فاح!
صفّق أسامة و قال مقهقها:
_محاولة جيّدة يا أكرم...دعك من المزاح السخيف.
التفت أسامة خلفه و ارتعدت أوصاله فماعاد قادرا على الحركة...إنّه السفّاح.

شحب وجهه و هو يشاهد أمامه كتلة سوداء ضخمة ظهرت من العدم، تحتضن بين كفّيها منجلا حادا، و يحوم حولها غراب أسود ذو عينين حمراوتين. عقل الذعر لسانه و هو يقول بكلمات متقطعة:

_أ هذا أحد مقالبكما الخرقاء؟

تراجع أكرم و إسحاق بضع خطوات قبل أن يقولا:

_نقسم أنّه لا دخل لنا في هذا.

شعرت بدوار حين لفظ أكرم و إسحاق كلماتهما الأخيرة قبل أن يفرّا تاركاني خلفهما كجثة هامدة. ألصق الخوف مرفقيّ بجانبي، و تسمّرت في مكاني تتلاعب بي الرياح ذات اليمين و ذات الشمال، و بلغت ذروة خوفي حين خاطبني السفّاح قائلا:
_أوه!... لقد مُنِحَت لنا فرصة أخرى.
بقيت مذعورا أتلمّس الخلاص من هذا المأزق الذي حشرت نفسي فيه دون سابق علم. حاولت أن أهرب لأنجو بحياتي إلّا أنّ السفّاح اختفى و ظهر أمامي على حين بغتة، ثمّ ضرب الأرض بعصاه فشُلّت حركتي.
وقف الغراب الأسود على كتفه و راح يقترب منّي أكثر... كان بكلّ خطوة يخطوها بإتجاهي تزيد دقّات قلبي تعاظما و ارتفاعا، و ينسج شعور غريب شباكه حولي فيمنعني من الكلام... إنّه شعور إقتراب الموت! قذف منجله في السّماء ثمّ أمسكه ببراعة حين هوى، و رسم دائرة كبيرة حولي. عقدت حاجبيّ متسائلا عن الغاية من ذلك، فأتاني الجواب. انبعث من الدائرة

شعاع لازوردي سرعان ما اختفى حين وجدت نفسي في مكان آخر.
ظللت أحملق في المكان بدهشة دون أن أنبس ببنت شفة. كنت في أرض أشبه بصحراء قاحلة ممتدة حتى الأفق، تناثرت فوقها مجموعة جماجم. حلّقت علامة إستفهام فوق رأسي سرعان ما التقطها السفّاح و حوّلها إلى إجابة.
_إنّها للحمقى الذين فشلوا في حلّ شيفرة الكتاب.
وقتئذ ضرب الأرض بعصاه مرّة أخرى كإشارة منه لفكّ قيد شلّ حركتي. فقلت له صارخا:
_عن أيّ شيفرة تتحدث؟... و لم أتيت بي إلى هنا؟
اكفهرّ وجهه و زاد من حدّة صوته و هو يقول:
_لا ترفع صوتك و إلّا لاقيت نفس المصير الذي مرّ به هؤلاء.
و أشار بمنجله نحو الجماجم.
تظاهرت كمّا لو أنّني كنت سيّد الموقف، و علت وجهي سيمات اللامبالاة. بينما كاد قلبي يخترق أضلعي و صرت أتربّص قدوم كارثة كبرى.
قادني السفّاح نحو قصر كبير خلت أنّني سأحصل فيه على جناح فاخر، إلّا أنّ بعض الظن إثم. وجدتني أمشي في رواق لا نهاية له، يضمّ زنازن صغيرة

الحجم، سُجِن في كلّ واحدة منها ما لا يزيد عن شخصين فقط. فتح باب إحدى الزنازن بإشارة من السفّاح لحارس ما لبث أن انتصب بجانبها بعد أن ولجها سيّده. قال لي بصوت رخيم بعد أن ناولني غرابه كتابا ضخما:

_يحتوي الكتاب على العديد من الألغاز و الجمل الواجب عليك حلّها و ترتيبها لتفكّ شيفرته، و تتمكّن من فتح الكتاب الثاني.

أخذت أردّد في نفسي:

_مالذي يقوله هذا المعتوه؟...منذ متى أصبح يستعان بي لحلّ الألغاز؟!

قلّبت صفحات الكتاب متململا، و وجهت كلامي إليه بطريقة مستفزة:

_و مالذي سأجنيه من ذلك؟ صداع رأس أم استنزاف فكر؟

هزّ كتفيه و قال بعد أن غلق الحارس باب الزنزانة:

_أنت ترغمني على التخلّص منك و لكنّي بحاجة ماسّة إليك في الوقت الراهن.

و استرسل:

_أحذرك من عجرفتك هذه لأنّها ستؤدّي بك إلى الهلاك.

سألته بعد أن بثّ كلامه في داخلي الرعب:
_و كم سألبث في هذا المكان القذر؟
قهقه وقال لي بعد أن مسح على منقار غرابه:
_أنت من سيقرّر ذلك.
احتقن وجهي بشدّة و تطايرت من عينيّ شرارات الغضب، فقذفت الكتاب على الأرض، ثمّ أسندت مؤخرة رأسي على الجدار أتذكّر كيف هرب الجبانان تاركاني في موقف لا أحسد عليه. رميت الكتاب بنظرات خاطفة، و كنت بالكاد أنوي تصفّحه لولا سماعي لصوت صراخ أزّ أرجاء السجن أزا.
وثبت من مكاني بعد أن نال منّي الفضول، و تبيّن لي أنّ صاحب الصراخ فتاة. اتّضح لي صليل السلاسل و وقع خطى المعتقلة أكثر. فتح الحارس باب زنزانتي لتُزَجّ فيها ثمّ أغلقها بعد أن قال:
_سيتم نقلك إلى ساحة المملكة بعد شهر أو شهرين، فكوني فتاة مطيعة لِألّا يتم إعدامك قبل انقضاء هذه المدّة.
ضربت قضبان الزنزانة بيديها و قالت بإنفعال:
_ستدفعون الثمن غاليا أيّها الأغبياء، لن تتمكنوا من حلّ شيفرات الكتاب مهما حاولتم.
تهادى إلى مسامعي صوت السفّاح و هو يقول:

_و من قال أنّنا سنكلّف أنفسنا عناء حلّها؟
و أردف بعد أن أشار ببنانه نحوي:
_سيحلّها العبقري الذي يجلس بالقرب منك.
كتمت ضحكتي خوفا من ردّة فعل السفّاح_عبقري!_،و اصطنعت الهدوء بينما كانت الفتاة تنظر إليّ بنظرات سخرية أقرب من كونها استفزازية.
_ستذهب محاولاتك كلّها أدراج الرياح،ولن تفلح في إيجاد حل لهذه الشيفرات.
أصابته نوبة ضحك هستيرية قبل أن يتنهّد و يقول:
_عندما تلحظين العلامة المتواجدة على معصمه ستدركين من منّا سيتمكن من الفوز.
ألقيت نظرة على معصمي لأتأكد من صحّة كلامه،فاتسعت حدقتا عينيّ حين لمحتها.قلت بصوت مرتعش:
_لم ألحظ هذه العلامة من قبل!
لاحظت سيمات الإستياء التي علت وجه الفتاة،فسألت السفّاح:
_ما قصّة هذه العلامة؟...لِم لم تظهر على معصمي من قبل؟
هزّ السفّاح رأسه متضجّرا و قال:

_لن أعيد سرد القصّة مرة أخرى.
ثمّ أضاف قبيل أن يغادر المكان:
_ستسردها عليك ندى.
شحب وجه الفتاة و بدت لي عيناها كالنوّاس لا تستقران في محجريهما و لو لثانية.خطت بضع خطوات نحو الكتاب و التقطته ثمّ حاولت تمزيقه.قمت من مكاني و خلّصت الكتاب منها،ثمّ خاطبتها في عنهجية:
_أجننت يا هذه؟!...هذا الكتاب هو الفرصة الوحيدة لي لأعود من حيث قدمت.
انفجرت ندى في وجهي كالقنبلة و قالت:
_لم اقتربت من البحيرة؟ سيقضى علينا بسببك.
اقتحمتني مشاعر الحيرة،و حاصرتني من كلّ الجهات،و تذكرت ما قالته لي أمّي منذ زمن:
_إيّاك و الإقتراب من البحيرة.
ازدرمت ريقي و ارتعش جسدي،ثمّ عدّلت من وقفتي و طردت عني الهواجس ثمّ قلت:
_لم أفهم شيئا ممّا تفوهت به للتو، مالذي يجري هنا؟

زمّت ندى شفتيها ثمّ جلست في زاوية الزنزانة،و ضمّت رجليها إلى صدرها محيطة إيّاهما بذراعيها،متجاهلة سؤالي.
فتحت الصفحة الأولى من الكتاب،و عانقت عيناي الحروف الأولى"لك القوّة و لي حاملها".لم أكثرت لما نقش على تلك الصفحة،فقلبت الموالية لعلّي أجد لغزا أو جملة كما قال لي السفّاح.لكنّني لم أعثر إلّا على رموز غامضة:

؟ ؟

باب، سلاسل حديدية، أنف، نجوم، باب آخر، أسد و شجرة... كلّها كانت رموزا نقشت على الصفحة الثانية من الكتاب و لم أدرك كنهها. لاسيما علامتي الإستفهام المحلّقتين أعلى البابين. زفرت بحنق و أطرقت مفكّرا بحل لهذا اللّغز، لكن سرعان ما تذكّرت العلامة المحفورة على معصمي، فتقوقعت مقابل ندى و سألتها:
_ما قصة هذه العلامة؟... و لِم لم تظهر لي قبل أن أقابل السفّاح؟

رمقتني بنظرة يملؤها الأسى، و تمتمت بصوت مختنق:
_لقد تمّ اختيارك لتحلّ شيفرة الكتاب، و تلك العلامة المشابهة لرمز"مالانهاية" هي نفسها شكل قفل الكتاب الثاني.
و استرسلت:
_لا تظهر تلك العلامة إلّا حين يقترب حاملها من البحيرة، و... و هي دليل على أنّ صاحبها هو الوحيد القادر على حلّ الشيفرات.
قلت بصوت خافت تعمّدت أن لا تسمعه ندى:
_لهذا لم يلق السفّاح القبض على أكرم و إسحاق!
لم أروِ غليل فضولي، فطرحت على ندى أسئلة أخرى:
_لِمَ يهتم السفّاح بأمر هذا الكتاب؟ و لِمَ يصرّ على إيجاد حلّ لشيفراته في أقرب وقت؟
أطبقت ندى عينيها محاولة ترتيب أفكارها التي تبعثرت حال طرحي السؤالين، ثمّ قالت:
_منذ زمن ليس ببعيد، نشب خلاف بين مملكتي الصريم و السنا بسبب نظام الحكم و المبادئ القائمة عليه. و قد كان السفّاح أحد الأطراف المهمة فيها، بصفته مرشحا لحكم البلاد قبل أن تتشتّت و يفرّق

شمل سكانها. كان يعتمد السفّاح في حكمه على مقولة"البقاء للأقوى"، فكان يجري معارك دامية بين السّكان، فمن خسر فيها أذعن للفائز و أضحى عبدا له، و إن أبى فإنّه يحرق حيّا أو يصبح طعاما للضواري المفترسة.

إلّا أنّ أحدهم كان له بالمرصاد و لم يوافق على هذا النظام الظالم، فترشّح للحكم أيضا. و عرف هذا الشخص بالنزيه لحرصه على العدل بين السكان و الرقي بالبلاد على حسابه لا على حساب شعبه. و قد نال بذلك حبّ النّاس و إعجابهم، و صوّتوا له ففاز.

لم يرضَ السفّاح الخسارة و أبى تقبّلها، فماكان عليه سوى إشعال فتيل الحرب و زرع الفتنة بين الشعب، و قد أفلح فعلا!

ثمّ قامت من مكانها و اتّكأت على الجدار لتتابع كلامها:

_يقال أنّه يوجد في هذه البلاد كتاب عجيب، تكمن أهميته في احتوائه على قوى سيكون لها حتما أثر سلبي إذا ما امتلكها السفّاح. و يعطى هذا الكتاب لمن يحكم البلاد، و لكنّ المخادع قام بسرقته بعد أن أباد العديد من الأرواح البريئة. و هذا الكتاب بين يديك الآن يا...

سارعتها بالقول معرّفا نفسي:
_أسامة.
أومأت ندى برأسها و أردفت:
_إذا ما تمكّنت من حلّ الشيفرات التي يحتويها الكتاب فستتمكّن من فتح قفل الكتاب الثاني الذي يضم بين ثناياه قوى عظيمة، سيستعملها السفّاح ضدّنا فيمحينا من الوجود.
نظرت مطوّلا إلى الكتاب قبل أن أقول:
_أ يقتل شعبه بهذه البساطة؟ أقصد بذلك شعب مملكة الصريم أيضا!
نفت ندى ما قلته و قالت بصوت تشوبه مسحة ألم:
_لا يا أسامة،سيقضي على شعب مملكة السنا و حسب،و سأكون أوّلهم للأسف.
باغتتها بسؤال سرعان ما أجابتني عنه:
_أولست من شعب هذه المملكة؟
أومأت برأسها سلبا و قالت:
_لا، فأنا أنتمي لشعب مملكة السنا.و قد تمّ القبض عليّ بعد أن وشى بي قسّام الذي اتخذته مساعدا لي في مهمة سرقة الكتاب.
طفقت تتّضح لي معالم القصة أكثر،و أخذت أفكر فيما عليّ فعله،أ أحلّ شيفرات الكتاب و أنجو

بحياتي،أم أكون سببا في قتل شعب بأكمله؟...كلّ ما يهمني هو العودة إلى دياري و الإبحار وسط كتبي و... تذكّرت فجأة القصائد التي قرأتها من قبل،و بالأخصّ المتضمنة للرموز التي وجدتها.غمرتني الفرحة و أنا أتلو القصائد التي كنت أحفظها لأجد غايتي.

_باب=خروج/سلاسل

حديدية=سجن/أنف=شم+أنف/نجوم=الإنتقال من الصدر إلى العجز/باب آخر/الأسد معناه واضح و الأشجار =غابة.

"خرجنا من السجن شمّ الأنوف

كما تخرج الأسد من غابها"

و علامتا الإستفهام تدلّان على أنّ الخروج هو الكلمة المنشودة.

_و لكنّ لِمَ رسم أنف واحد فقط؟

ضحكت حال معرفتي الإجابة.

_الأنف الواحد دليل على وجود شخص فقط،و تماشيا مع ماذكر،فإنّ الحلّ هو كلمة"خرج"!

تسمّرت ندى في مكانها ترمقني بنظرات يملؤها الإعجاب،ربّما عثرت على الحل.شعرت بوجع خفيف في معصمي،و أخذت يدي اليمنى ترتجف.ثمّ أحاط

بالعلامة شعاع لازوردي كالذي انبعث من الدائرة.فغرت ندى فاها و قالت لي بعد أن اقتربت منّي:

_إنّها الإجابة الصحيحة!

فُتِح باب الزنزانة لحظتئذ و لمحت السفّاح يقترب منّي ليقول لي:

_أحسنت يا أسامة، يبدو أنّك فتى عبقري حقا!

لاحظت نظرات ندى التي تكاد تلتهم السفّاح، لقد كانت تعرب عن غضب و حقد شديدين. عدّلت من وقفتي و قلت له بعد أن ابتعدت عنه:

_أ لن أخرج من هذا المكان؟

أجابني قائلا:

_ربّما ستخرج لمدة قصيرة لتتجوّل في أرجاء المملكة.

و أردف بعد أن رماني بنظرات ماكرة:

_و سأرسل معك حارسين ليراقبا تحركاتك، و إيّاك أن تنوي أو تحاول الهرب.

التفت بعدها نحو ندى و خاطبها:

_أمّا أنت فلا يسمح لك بمغادرة هذه الزنزانة، فقد تجوّلت فيها بما يكفي في الأيّام الفارطة.

هزّت ندى كتفيها كإشارة منها على لامبالاتها، و قالت:
_لن أنتظرك حتى تأذن لي بالخروج، فسأرحل عن هنا قريبا، حينما نستعيد الكتاب و نمحيك من الوجود.
ضحك السفّاح و أوعز إليها بالسكوت، ثمّ أمرني بمغادرة المكان رفقة الحارسين عندما يعود مرّة أخرى.
تنهّدت ندى و جلست بالقرب من باب الزنزانة، و أسندت رأسها على كفّها اليمنى و قالت:
_أظنّك ستتمكّن من حلّ شيفرات هذا الكتاب، فتجلب لنا المتاعب.
زفرت بحنق و قلت لها و لم أتمكن من إخفاء غضبي و قلقي:
_و مالذي يجب عليّ فعله؟ أتريدين منّي أن أُقتل و ألقى المصير الذي لاقاه العشرات قبلي؟!
زمّت ندى شفتيها و قالت:
_لكنّك بذلك ستنهي حياتنا جميعا، حتى أنت! أتظنّ أنّ السفّاح سيعيدك إلى عالمك كما زعم؟
استولت عليّ الوساوس، فكيف لشخص لم يرحم بني قومه أن يرقّ لحالي و يفي بوعده لي؟ و مع ذلك لم أقتنع بكلام ندى... ربّما لن يخلف وعده.

خطفت ندى الكتاب من بين يدي و قالت:
_يمكنه أن يعيّنك حارسا أو "رجلاويا" له في هذا القصر في حال لم يرجعك إلى عالمك. ستعيش مذلولا طوال حياتك هنا.
خيّلت إليّ صورتي و أنا بزيّ حارس ثمّ تمتمت قائلا:
_العمل خير لي من الموت.
ضحكت ندى و قالت:
_يا لك من مغفّل!
استقرّت عيناها على الصفحة الرابعة من الكتاب، و قالت بصوت مسموع:
_ من السّماء إلى الأرض، و من الشّمال إلى الجنوب.
ارتسمت علامات الحيرة على محياي، و قلت في تبرّم:
_عبارات مبهمة لا فائدة منها.
و ماكادت ندى تعقب على كلامي حتى ناداني السفّاح بصوته الأجش، طالبا منّي مرافقة الحارسين.
تناولت الكتاب من ندى و قلت لها و طيف التحدّي يحوم حول عينيّ:
_إذا ما تمكّنت من العثور على الحلّ قبلي، سأتنازل عن هذا الكتاب لصالحك.
وقفت مترددة و قالت لي:

_إذا سأحاول، و سأوسعك ضربا إذا ما أخلفت وعدك.
قادني الحارسان نحو المكان الأوّل الذي وطئته قدماي. كان أحدهما شابا ذا ذراعين مفتولتين، و على رأسه قبعة لم تترك من شعره الفاحم سوى بعض الخصائل السوداء التي تدلّت على جبينه. أمّا الآخر فقد كان ذا طلعة بهيّة تنم عن الوجاهة، ثاقب النظر و ضخم الجثة. وقد كان ثرثارا مقارنة بزميله الذي فضّل إتخاذ الصمت رفيقا له.
حكى لي جُحَيْم عن مملكة الصريم و عن تاريخها قبل و بعد أن استقلّت عن مملكة السنا. تبيّن لي أنّ المكان يخلو من الماء، فسألته عن السبب و لم يبخل بالإجابة:
_فيما مضى، أصاب المملكة فيضان أدى إلى فساد محاصيلها الزراعية و حتى بيوت سكانها، و قد انتشر جراءها الماء من الشمال إلى الجنوب. كنّا نتذمّر من الكارثة التي حلّت بنا، لكن سرعان ما تمنينا بقائها.
مسحت على الأرض و أشرت له أن يتابع كلامه:
_حلّ بالمملكة جفاف أدى إلى موت الكثيرين و انتشر أيضا ليشمل جميع أنحائها.

كنت بالكاد أنوي أن أقول"تستحقون ما يحدث لكم"، إلّا أنّني فضلت الكتمان. في طريق عودتي إلى السجن تذكّرت ما سمعته من ندى "من السّماء إلى الأرض، و من الشّمال إلى الجنوب"، و وجدت أنّ النصف الثاني يطابق ما قاله لي جُحَيْم عن انتشار الماء من الشّمال إلى الجنوب.

_الماء!... لا بدّ من أنّها الإجابة الصحيحة.

هرعت نحو زنزانتي لتستقبلني ندى بوجه مشرق ينطق بالسعادة. أعطيتها الكتاب و قلت لها:

_وجدت الإجابة يا ندى.

قامت من مكانها و هتفت:

_و أنا عثرت عليها أيضا.

سارعتها بالقول حتى لا تعكّر عليّ فوزي بالتحدّي:

_الماء... إنّه الحل.

ألقيت نظرة على معصمي و كررت الإجابة عندما لم ينبعث الشعاع اللازوردي منه. كتمت ندى ضحكتها و قال موجهة الكلام إلي:

_إنّك فتى متسرع، لم تكتف بالمشاكل التي واجهتها بإقترابك من البحيرة.

شعرت بضيق و بعض من الغضب، فقلت لها:

_إذا ما هي الإجابة يا عبقرية؟

أشارت ببنانها نحو الأرض المرسومة على واجهة الكتاب و قالت:
_الإجابة يا أسامة هي الإنتشار.
أخذت الكتاب و قلت بعد لحظات:
_و لكنّ الماء انتشر من الشّمال إلى الجنوب، كمّا أنه النازل من السّماء إلى الأرض مثلما ذكر تماما.
عارضت ندى ما قلته في البداية و قالت لي:
_لقد وجدت نصف الإجابة فقط يا أسامة. فقد أصبت حينما قلت أنّ الماء يأتي من السُماء وصولا إلى الأرض، و لكنّ النصف الثاني لم يكن يقصد الماء بل يقصد انتشاره من الشّمال إلى الجنوب.
و أردفت:
_قُسِّمت الجملة إلى قسمين تدلّ كل منهما على معنى واحد. و بما أنّهم قصدوا الماء _المفرد المذكر_فإنّ الإنتشار يحوّل إلى فعل يعبّر عنه، ألا وهو انتشر.
بدى لي كلامها منطقيا و معقولا، إلّا أنّني لم أكتم سؤالي هذا:
_و لكن كيف تأكّدت من أنّ المقصود ماء لا مياه؟
أفصحت ندى عن ابتسامة و هي تجيبني:
_لاحظ أنّ "الشّمال"،" الجنوب"، "الأرض" كلمات مذكّرة و قد طغت على المؤنّثة"السّماء". و عدد

الأولى فردي لا زوجي و هو دلالة على أنّ الكلمة فردية مذكّرة.
و أضافت بعد أن أشارت إليّ لأنطق بالإجابة:
_ما رأيك بماقلته؟
أومأت لها و نفّذت طلبها فنطقت بالإجابة لتضيء العلامة على معصمي.
بسطت ندى يدها نحوي و قالت لي بعد أن هزّت كتفيها:
_الكتاب لي الآن يا أسامة.
ازدردت ريقي حالما تذكرت العقاب الذي سيحلّ بي إذا ما علم السفّاح بذلك... يا لي من أحمق متسرع!، كيف لي أن أقدّم وعدا سينهي حياتي.
تلجلجت قليلا قبل أن أمدّها بالكتاب، ثمّ اقتنعت بأنّه من الأفضل لي الموت على أن أكون منافقا خائنا للوعود، فوعدي ديْن وجب عليّ تسديده. ابتسمت ندى قائلة:
_كنت أمزح و حسب، أتظنني شريرة للحدّ الذي أُسهِم فيه بموت أحدهم شنقا!
اختلجتني فرحة كبيرة و سرت في نفسي الطمأنينة:

_و لكن انتظر! لا يعني ذلك أنّني سأتنازل عن مكافئتي كليّا. ستمدّني بكلمة السّر التي سنخرج بها مفتاح الكتاب الثاني عندما نحلّ جميع الشيفرات.
سلّمت أمري لله و وافقت على شرطها دون تردد.
تهادى إلى مسامعنا صوت السفّاح و هو يأمر حراسه بالإنتقال إلى الباب الخارجي للقصر. صفّقت ندى بحماسة و تمتمت و السعادة تعلو محياها:
_لقد وصلوا!
وقفت كالتائه لا أفقه شيئا، بينما فتح السفّاح باب الزنزانة و شرارات الغضب تتطاير من مقلتيه:
_عليك أن ترافقني لتحتمي ممّا سيحدث.
رفضت القدوم معه طالبا منه تفسيرا لما يحدث:
_لقد هاجمنا جيش مملكة السنا و هم يطالبون بالكتاب الآن. يبدو أنّهم ينوون إشعال فتيل الحرب.
ثمّ التفت نحو ندى و قال:
_أمّا أنت فستعدمين حالا.
اعترضت طريقه حينما حاول أن يقتادها خارجا و قلت له بلهجة حاسمة:
_ستساعدني في حلّ شيفرات الكتاب فهي... ذكية و ستسهلّ عليّ مهمتي.
زفر بحنق و أعقب على كلامي:

_إنّها مخادعة و تنوي سرقة الكتاب منّا.
نفيت ماقاله و صوت ما بداخلي يؤيد كلامه.
_لا لن تفعل، فأنا سأحمي الكتاب منها و لن أسمح لها بأخذه... ثق بي.
_لا أثق بك و لا بأيّ أحد، و لكنّني سأسمح لها بمرافقتك على أن تُقتل حين تنتهي مهمّتنا.
شاطرت ماقاله السفّاح، فغادر المكان بعد أن أبلغه كبير الحراس أنّ جيش السنا رحل.
_أنتِ مدينة لي بحياتك.
قلتها لندى بلهجة ماكرة.
_لا لست كذلك، فأنا من ستعتق رقبتك بمساعدتي لك في حلّ الشيفرات.
لوّحت بيدي في الفراغ و قلت بصوت خافت:
_عليّ أن أحلّ ما تبقى في أسرع وقت.
فتحت الكتاب فوجدت مايلي:
_رسما لعصفور يبكي على عصفور آخر بدا لي مفارقا للحياة، يدا تلوّح لشخص غير واضح المعالم بدا نصفه الأعلى متلاشيا، و تابوتا ضخما يحيط به ثلاثة أشخاص.
موت، وداع، تلاشي... هذه هي الكلمات التي خطرت لي في بادئ الأمر. وقفت ندى بجانبي لتتّضح

لها الرسومات أكثر، إلّا أنّها لم تنبس ببنت شفة_لكونها غير متسرعة مثلي، فتتخذ قراراتها بروية_. حاولت أن أجد الشيء المشترك بين ما رأيته،فتبيّن لي أنّه "الوداع" على الأرجح. نطقت الكلمة لمرتين على التوالي، فلم يحدث شيء!

_إجابتك خاطئة يا أسامة.

و أضافت بعد أن أشارت نحو باب الزنزانة.

_السفّاح آتٍ، و من الظاهر أنّه غاضب.

أمر السفّاح الحارس أن يفتح الباب بنبرة حشرجية تعرب عن غضب شديد. ثمّ ولج الزنزانة و هو يتمتم بكلمات لم أفقه كنهها.

_سترحل الآن عن هنا و ترافقني نحو جناح خاص.

_أ لم يقولوا أنّ جيش السنا رحل؟!

تفقّد الكتاب بعينيه و أجابني قائلا:

_لا، لم يرحلوا،لقد كانوا يجلبون المزيد من الأسلحة ليهاجموا القصر.

لحظتئذ حاولت ندى إخفاء ضحكتها إلّا أنّها لم تفلح... كانت ضحكة نصر قريب. سألته محتارا:

_و مالذي سنفعله الآن؟

أجابني بعد أن أمر منّي وضع الكتاب في حقيبة ظهر _كان قد أعطاني إيّاها من قبل_:

_سنقتلهم جميعا.
ساورني قلق رهيب،و أحسست بشيء ما داخلي يتمزّق حال سماعي كلمتيْ "قتل" ... و"جميعا".
التفتت و رمقت ندى بنظرة سريعة،بدى لي من خلالها أنّها مطمئنة!
قادنا السفّاح نحو جناحه الذي لم أتوقّع قط أن يكون بهذا الشكل!...غرفة متلثة ،ذات لونين(أسود و رمادي)،عُلّقت على جدرانها لوحات مخيفة،و نثرت فيها جماجم هنا و هناك.ناهيكم عن الباب السّري الذي نبّهني على وجوده السفّاح.اقترب بعد أن أوعز إليّ بلاحقه إلى الشرفة المطلّة على باحة القصر،و تنهّد قائلا:
_سيكون من السهل عليّ القضاء عليهم.
حلّقت فوق رأسي علامة تعجب،و قلت مندهشا:
_كيف سيكون ذلك سهلا! أولا ترى عددهم المقدّر بمئات الآلاف؟!
ضحك و قال لي بعد أن أسدل الستار:
_لا تقلق بشأن ذلك،كلّ ماعليك هو حلّ شيفرات الكتاب و حسب...أفهمت؟
أومأت موافقا ثمّ قلت:
_فهمت.

اتّجهت صوب الباب السّري فور إنهاء السفّاح لكلامه،و أخذت أنزل الدرج بروية، و قد كانت ندى تتبعني بحذر أيضا.كان المكان يلتحف الأسود كلّما نزلنا أكثر.كان كلّ همّي أن أصل إلى الغرفة التي وصفها لي السفّاح بعد أن نال منّي التعب.وطأت قدماي عتبة الغرفة التي أضيئت شموعها على حين بغتة.لم تختلف عن جناح السفّاح إلا بشيء واحد هو الشرفة.

سمعت وقع أقدام تقترب منّي،فالتفتت بعد أن احتضنت الحقيبة،لأفاجأ بالسفّاح!

_لِمَ أتيت؟...ألا تنوي الإستعداد للحرب؟!

زمّ شفتيه و قال لي:

_أحللت اللّغز التالث؟

صمتت لبرهة و ناولته الكتاب بعد أن أجبته:

_لا لم أتمكن بعد.

أظنّ أنّني عثرت على الإجابة،فهي واضحة.

أعقبت على كلامه قائلا:

_أ أنت متأكد؟...و ماهي إذا؟

ابتعد بضع خطوات و قال لي بنبرة طغت عليها مسحة من الحزن:

_الفقدان أو يفقد.

حاولت أن أستعرض الرسم الذي رأيته، فبدى لي ماقاله السفّاح معقولا.
_يفقد.
قلتها قبل أن يظهر الشعاع اللازوردي من معصمي مرّة أخرى!...إنّها إجابة صحيحة.
_لقد أصبت حقا!...و لكن متى وجدت الحل؟
أجابني بعد أن وجّه نظره إلي:
_منذ سنوات.
_منذ سنوات!...و لم حمّلتني عناء محاولة حلّه؟...أفي جعبتك حلّول الألغاز الأخرى؟
ابتسم و قال لي مجيبا إيّاي:
_كنت أوّد منك أن تستعمل ذكاءك،فتحلّ الشيفرات معتمدا على نفسك.
و استرسل:
_و إنّي لَمَالكٌ لحلول باقي الشيفرات.
فتحت فاهي و لم أنبس ببنت شفة بعدها،أيعقل أنّه يعرف جميع الحلول...لِمَ لَم يفتح الكتاب الثاني إذا!
_إلّا اللّغز الأخير.
قالها و قد رمى ندى بنظرة مستفزة.
اهتزت الأرض بشدّة فجأة و دون سابق تنبيه! حينها قال الأخير و قد استعاد نبرة صوته الجديّة:

_إنّهم يستعجلون موتهم!...يالهم من حمقى.
و أضاف:
_عليك أن تحلّ اللغز الأخير و حسب.حلول الألغاز السابقة مدوّنة أسفل غلاف الكتاب بخط صغير.
تناولت الكتاب من يده و تفحّصت غلافه،بل و أسفله.لقد كان صادقا فعلا!
فتحت الكتاب في آخر صفحة منه،و قد نقش عليها:
"رتّب الكلمات التي تحصلت عليها...و لا تنسى لمستك."
كنت قد قرأت الحلول
وكانت"خرج،شخصين،،يفقد،معنى،...،به،احتفظ".
أطرقت مفكّرا بالحل إلّا أنّني لم أستنتج شيئا.فقد كان يشغل بالي أمر واحد...هو مسحة الحزن الذي انتابت السفّاح حال نطقه لكلمة "فقدان".
قلت لندى عندما دوى من الخارج صوت لقنابل:
_من سيفوز في رأيك؟
ابتسمت و أجابتني بثقة:
_سنفوز نحن إذا ما تمكّنت من حلّ اللّغز الأخير و سلمتني الإجابة.
_سأبذل ما في وسعي لينتصر الحق،و لأعود إلى دياري في أقرب وقت.

صعدت الدرج بعد أن نامت ندى،و ألقيت نظرة عن كثب،لأجد السفّاح يقف أمام قدر كبير،يخلط سوائل لم أتعرّف على طبيعتها.انتبه لوجودي بسبب صراح معدتي.

_أ أنت جائع؟

اكتست وجنتاي حمرة و قلت:

_أظنّ ذلك.

أشار لي ببنانه نحو خزانة كبيرة و قال:

_ستجد هناك ما يسدّ جوعك و يسكت أنين معدتك.

عبّرت له عن شكري و أخذت من الخزانة قطعة جبن و خبزا.حاولت ألّا أبدي له اهتماما لما يفعل،إلّا أنّني لم أفلح.

_ماذاك الذي تصنعه؟

_حمض قاتل.

_حمض قاتل؟!

التزم الصمت و أجابني بعد أن قلت له:

_أهذا للحرب؟

_نعم.

_و لكن أستحرق به الجميع...أولا تشعر بالشفقة اتجاههم؟

ضرب بيده القدر بقوّة و قال صارخا:
_أولم يشعروا بالشفقة اتجاهي حينما قتلوا أهل قريتي؟
و أضاف:
_أنت تفتح الجرح الذي ادّعيت أنّني قطبته...أنت فضولي!
ابتلعت ريقي و تابعت الأكل بعد أن أحرجني بكلماته الأخيرة.
و ماهي إلّا لحظات حتى حطّم أحدهم الباب و دخل رفقة شخص آخر كان مسلحا!
رمى السفّاح بعضا من الحمض على بساط الغرفة و حذرني قائلا:
_إيّاك و الإقتراب يا أسامة.
قهقه الإثنان و قال أحدهما:
_ألا تجيد التصويب أيّها الأحمق؟
ثمّ اقتربا نحو الرقعة التي ملأها الحمض،فدوى منهما صراخ تردّد صداه في أرجاء القصر بأكمله.
_إنّه يحترق...يجب عليّ أن أنقذه.
حملت إناء من الحديد الصلب الذي كان قد وضع فيه السفّاح الحمض و واجهته:
_ستندم على فعلتك.

_مالذي تفعله يا أسامة؟...أجننت؟!
صرخت قائلا:
_أنت وحش...دائما ما كنت تظلم شعبك و تزهق أرواح الأبرياء.
_مالذي تقوله!...ضع الحمض من يدك فقد يؤذيك.
ضحكت و قلت:
_و منذ متى يهمّك حال النّاس؟
لم أنتظر إجابة منه،بل رميت الحمض على وجهه فسقط شيء ما منه...إنّه قناع!
خرجت من فمي كلمات متقطعة عندما رأيت وجهه...
_فتاة!
قامت من مكانها و خطفت منّي الحمض قائلة:
_مالذي فعلته أيّها الأبله؟...كدت تقتلني.
اختلف صوتها تماما عمّا كان من قبل،حتى طريقتها في الكلام.
_مالذي تقصده بظلمي للنّاس يا أسامة؟...أرأيتني بأمّ عينيك و أنا أقتل الأبرياء؟
تلجلجت قليلا و أجبتها:

_أخبرتني ندى بأنّك كنت تجرين معارك دامية بين شعبك،فينتصر فيها الأقوى و يذلّ فيها الضعيف،و قالت لي...

قاطعتني و قالت لي و سيماء الغضب بادية على محياها:

_تلك الفتاة كاذبة...كاذبة و خطيرة.إنّها تسعى لسرقة الكتاب،أمّا أنا فأسعى لإتلافه.

ذهلت ممّا قالته فسألتها:

_ولِمَ تنوين إتلافه؟...بل و لِمَ أتيت بي إلى هنا و هددتني؟!

_أوّد أن أتلفه لكي لا يحصل عليك حاكم مملكة السنا،فهو ينوي تدميرنا جميعا،و من ثمّ بناء رقعة جديدة يجعل من قاطنيها عبادا له.

و استرسلت:

_لم أستطع أن أحلّ اللغز الأخير،لذلك كنت أبحث دائما عمّن يساعدونني لفعل ذلك،و قد كانت تهديداتي لك وهما لا غير.

سمعت ندى تناديني،فرمقتني الفتاة قائلة:

_علينا أن نذهب من هنا حالا،فلا وقت سيكفيني لصنع كمية كبيرة من الحمض...هيا بنا فلنذهب.

لم أخط بخطوة، فقد كنت غير مصدّق لماقالته لي.
فاقتربت قليلا منّي و قالت:
_عليك أن تثق بي يا أسامة كما وثقت بك.
ثمّ ذهبت.شعرت أنّها صادقة فيما قالته حين لفظت آخر جملة قبل أن تغادر.فالتقطت زجاجة كبيرة الحجم من الخزانة و ملأتها بالحمض،ثمّ لحقت بها.كانت متيقّنة من أنّني سألحقها،فقد كان تسير ببطئ لتسمح لي الفرصة برؤيتها.
_أتمنى أن يبقى هذا الأمر سرا بيننا.
قالتها بعد أن غطّت نصف وجهها بقماش أسود كي لا يكشف أمرها.
_ما قصتك يا...
_سلاف...إنّني حاكمة هذه المملكة،و قد أطلق عليّ السكان اسم السفّاح لظنّهم بأنّني من كنت أعذب شعبي و أفتك بهم.كان النزيه_كما لقبوه_رجلا طمّاعا،تسربت النرجسية بداخله،فلم تدفعه إلّا لأن يحصل على مايريد و لو على حساب الآخرين.
أوهم هذا الرجل النّاس بأنّني شريرة بل و سفّاحة،بينما هو طيّب، ليحصد إعجابهم و حبّهم.عارض الجميع ماقاله فجعلهم كالخاتم في يده

بواسطة "سحر العمى"،و قد أفلت بعضهم من بطشه و هم الآن شعب هذه المملكة.
_إذا فقد كان كلّه وهما و افتراءً.
زفرت بأسى و أجابتني:
_نعم يا أسامة.
_و مالذي سنفعله الآن؟...سيمسكون بنا حتما.
_عليك أن تحلّ اللغز،فأنا أثق بذكائك...ولا سبيل آخر لنا غير ذلك.
توقفنا بالقرب من نخلة ضخمة،ثمّ فتحت الكتاب لأرتّب الكلمات.
مضت ساعة و أنا على تلك الحال،تتلاطم الأفكار في رأسي،إلى أن تمكّنت من ترتيبها.
" إذا خرج...عن شخصين فإنّه يفقد معناه، احتفظ به."
لم تضئ العلامة على معصمي،فقد كان يستلزم عليّ أن أملأ فراغ النقاط الثلاث...ماهو الشيء الذي إذا خرج عن شخصين فإنّه يفقد معناه؟
باغتنا ثلاثة رجال من جنود السنا،و هاجمونا.فلم أنتبه لنفسي إلّا و أنا أحرقهم بالحمض.
_أجلبته معك؟
_نعم يا سلاف،الحيطة واجبة.

أومأت برأسها،ثمّ رفعته نحو السماء قائلة:
_ستختفي الشمس بعد قليل،علينا أن نجد الكلمة و نخرج المفتاح.
ركضنا نحو المكان الذي وصفه الكتاب،فلم نعثر على أحد فيه.بحثت عن المفتاح إلّا أنّني لم أجده.
_ربّما يوجد هنا حجر في غير مكانه ليدلّ على وجود المفتاح.
_ربمّا.
****بعد بحث طويل...**
_هاهو ذا المكان.
دفعت الحجر بقوّة قبل أن يفتح باب صغير يضمّ داخله كتابا و مفتاحا.لم أنتظر تعليمات من سلاف،بل حملت المفتاح و فتحت به قفل الكتاب.
سمعت صوتا يناديني،و قد بدى مألوفا لي...إنّه صوت ندى!
_هيا يا أسامة أنطق بكلمة السّر و أمدّني بالكتاب كمّا اتفقنا.
التفتت لأطمئن على سلاف فلم أجدها.
_هاهو ذا السفّاح يا أسامة لا تقلق،لن يتمكّن من تهديدك بعد الآن.
_إنّ السفّاح ليس...

تذكرت وصية سلاف التي ردّدتها كثيرا خلال بحثنا عن المفتاح"احتفظ بالسّر"...السّر هو الشيء الوحيد الذي إذا خرج عن شخصين فسيفقد معناه.
_السِّر.
لم يتوهج معصمي هذه المرّة بل توهجّ الكتاب الثاني الذي كان بين يدي.ظهرت جملة فيه لم ألحظها في تلك الصفحة سابقا"تمنى أمنيتين".
قالت لي سلاف متوسّلة:
_تمنى أن يزول هذا السحر يا أسامة،و أن تعود إلى عالمك.
_لا تنصت لما يقوله هذا الأحمق...تمنى أن يقضى على شعب مملكة الصريم الطغاة.
_سألبّي طلبك يا ندى.
غمرت السعادة ندى،بينما توشّحت الخيبة سلاف،و قد آن لي الآن أن أتمنى أمنيتين.
_أتمنى أن...
_هيا أسامة فلاوقت لنضيّعه، سيلحقنا جيش الصريم.
تنهّدت و قلت بسرعة:
_أتمنى أن يزول "سحر العمى" و أن أعود من حيث أتيت...إلى عالمي.

اعترى ندى فجأة غضب شديد،و قالت صارخة:
_مالذي فعلته؟...لقد أضعت الأمنية التي كافحنا سنين لنحصل عليها...سأقتلك.
و ما هي ثوان كادت فيها ندى أن تقترب مني حتى سقط الجميع صارخين ماعداي أنا و سلاف.
_لقد بطل السحر...نجحت يا أسامة!
لاحظت سلاف أنّني أختفي تدريجيا من أمامها،فقالت لي بعد أن تناولت منّي الحمض و رمته على الكتاب.
_شكرا لك يا أسامة...لن أنسى معروفك ما حييت.
شعرت بضيق في صدري لحظتئذ، و بوجع شديد،قبل أن أجد نفسي بالقرب من البحيرة.
التفتت يمينا و شمالا أبحث عن سلاف،ثم انتشلني من ذلك والداي و هما يهزّانني.
_حمدا لله أنّك بخير يابني.
_مالذي حدث؟
_لقد فقدت وعيك يا أسامة.
_وكم طال ذلك؟
_خمس دقائق.
_خمس دقائق!
أكّد لي والدي ما قالته أمّي ثمّ سألني:

_رأيتك تلتفت يمينا و شمالا باحثا عن شيء،فماهو؟
_كنت أبحث عن...
تردّد صدى صوت سلاف بداخلي و هي تقول"احتفظ بالسِّر"،فحاولت أن أكمل الجملة التي بترتها.
_عنكما يا أبي.
نحن الآن بجانبك فلا تقلق،يبدو أنّكم تعرضتم لمقلب سخيف من طرف شخص معتوه قبل قليل.
_ربّما يا أبي...ربّما.
رافقت والديّ و صديقيّ نحو البيت و أنا أقول"كم أنّ المظاهر خادعة،و كم أنّ كلام النّاس مؤثر!".

تمت بحمد اللّه..